

جهاز قراءة التوحيدي لخطاب الوزيرين (الصاحب بن عباد وابن العميد)

د. أحمد الكبداني*

E.mail: ahmed_prf@hotmail.com

* المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، الناظور، المغرب.

جهاز قراءة التوحيد لخطاب الوزيرين (الصاحب بن عباد وابن العميد)

د. أحمد الكبداني

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الفكر النقدي لدى أبي حيان التوحيدي من خلال قراءته لخطاب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، حيث حاولنا معرفة منطلقات القراءة عند أبي حيان التوحيدي، وآلياتها الخاصة من خلال كتابه "أخلاق الوزيرين"، ومحاولة الكشف عن أهم مآخذ القراءة النقدية التي رصدتها التوحيدي في نقده لطريقة الكتابة عند الوزيرين الصاحب بن العباد وابن العميد كالانتماء إلى مدرسة الصنعة، والإغراب في اللفظ، والتقليد. ذلك أن كل قراءة كمشروع يؤسس للخطاب النقدي، يستدعي بادئ ذي بدء آليات وأجهزة بها يشتغل في الرصد والتحليل والتقييم. وعلى هذا الأساس، فالدراسة تأخذ على عاتقها مهمة الكشف عن مجموعة من الآليات التي يتكئ عليها القارئ- الناقد في مقارنة النص المقروء، وبيِّن لنا كيف كان القدماء من أسلافنا يجيدون الانخراط في القراءة بطرائقها المختلفة، وتحولاتها.

مصطلحات أساسية: الفكر النقدي، أبي حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، القراءة النقدية، الخطاب النقدي.

Tawhidi's approach to the discourse of the two ministers: (Sahib ibn abbad and ibn el amid)

Dr. Ahmed ELKebdani

Abstract:

The purpose of this paper is to study the critical thought of Abu Hayyan al tawhidi through his approach to the discourse of two ministers: Sahib Ibn Abbad and ibn el amid. We try to find out the technical devices and mechanisms relied up on is in his book: "the Morals of the two ministers," and expose the most important draw backs pertaining mainly to style, imitation. Thus, each reading as a project which establishes the critical discourse requires first of all mechanisms and devices employed in the analysis and evaluation. Accordingly, our study determines the different mechanisms that the critic relies on in his approach to a reading text. Further more, it shows us how our ancestors excelled at such task.

Keywords: Critical thought, Abu Hayyan al tawhidi, The Morals of the two ministers, The critical discourse.

المقدمة :

بن عباد وابن العميد، وردود فعله تجاه مدرسة الصنعة التي تزعمها الوزيران، ذلك أن أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، له في مجال القراءة أكثر من صولة وجولة بدءاً من إدمانه على قراءة مختلف المعارف الفكرية السائدة في عصره. وصولاً إلى دأبه المتواصل على حضور أنشطة المجالس، وممتدياتها الثقافية والفكرية «وخصوصاً أن بلاطات الوزراء والأمراء وبلاطات من فوقهم ومن دونهم كانت تعج بالندماء الذين منهم الفيلسوف والشاعر والمجادل والنحوي والمنطقي، ومنهم المسلم واليهودي والنصراني والصابئي، ومنهم النديم القار ومنهم النديم الطارئ. فقد كان للمهلي وابن العميد وابن عباد وابن سعدان ندماء كثيرون»⁽³⁾.

هذا وأرى من المناسب التأكيد على أهمية المكانة الأدبية والسياسية للوزيرين في التراث العربي، فابن العميد كما وصفه الثعالبي النيسابوري كان: «عماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم وأوجد العصر في الكتابة.. يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها»⁽⁴⁾. وفي السياق ذاته، نجد صاحب «اليتيمة» قد طال في ذكر خصال صاحب بن عباد المعروف «بعلو محله في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرده بغايات المحاسن... وكانت أيامه للعلوية والعلماء، والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم»⁽⁵⁾.

وقد اتبعت في هذه الدراسة منهجاً يتمثل في استقراء النصوص، وتحليلها عن طريق تتبع الجزئيات وتجميعها وتصنيفها حتى يسهل على

لاشك أن موضوع القراءة والقارئ يعدان من أهم القضايا الرئيسة لنظرية التلقي، فالقراءة بوصفها نشاطاً وفاعلية إبداعية متميزة، ترتبط بمجموعة من الاستراتيجيات التي تتحكم فيها، منها ما هو ذهني ومعجمي وموسوعي، وليس هناك تعريف للقارئ محدد تحديداً دقيقاً، جامعاً مانعاً كما يقول أهل المنطق، وإنما هناك تعريفات مختلفة للقراء تتعدد وظائفهم بتعدد جهات النظر المختلفة، ويقدم لنا النقد الأدبي المعاصر أنماطاً معينة من القراء «فهناك القارئ المزيف عند (the Gibson mock Reader)، والقارئ الضمني عند (Booth the implied reader)، والقارئ النموذجي عند (Eco) The model reader، والقارئ الأعلى عند (Riffaterre) The super reader، والقارئ المثالي عند (Culler) The ideal reader، والقارئ الفعلي أو الحقيقي عند (jauss) the actual reader، والقارئ المخبر عند (the informed reader)»⁽¹⁾ (Fish).

وهذه الأنماط من القراء هي ما دعت «إلرود إيش» إلى القول: «بأنه من الملائم الآن أن نترك مفتوحاً معنى مفهوم «قارئ» ذلك أن إعطاء معنى أحادي لهذا المصطلح سيفاقم الطابع الإشكالي للموضوع الذي يمكن لتلك الطرائق المختلفة أن تجعله مشتركاً»⁽²⁾.

تأسيساً على ما سبق، فإن أهمية موضوعنا تكمن في محاولة فهم آليات اشتغال جهاز القراءة عند التوحيدي في إطار تلقيه لخطاب الوزيرين صاحب

أن كلمة «أخلاق» التي وردت فيه، جاءت معرفة بالإضافة (الوزيرين)، ومعنى ذلك أن هناك أخلاقاً مقصودة بعينها وتخص الصاحب بن عباد وابن العميد، وصاحب الكتاب على دراية بها، إذ إنه خبر هذين الرجلين من غمار الباقيين كما يقول بلسانه: «ووقفت على شأنهما، واستنبت دخائلهما، وعرفت خوافي أحوالهما، وغرائب مذاهبهما وأخلاقهما، ولعمري قد كان أكثر ذاك، إما بالمشاهدة والصحبة، وإما بالسمع والرواية من البطانة والحاشية والندماء وذوي الملابس»⁽⁶⁾.

لا يتوانى أبو حيان التوحيدي من خلال هذا النص عن ذكر مصادر قراءته لخطاب الوزيرين والتي حصرها في:

(1) المشاهدة والصحبة.

(2) السماع والرواية من أفراد حاشية الصاحب بن عباد وندمائه.

وهكذا، يبدو للمتأمل أحياناً، أن كتاب «أخلاق الوزيرين» له سياقه الخاص به، ومن ثم ضرورة مراعاة جملة الأنساق والسياق العام الذي أفرزه، وهذا يقتضي منا بداية معرفة منطلقات قراءة أبي حيان التوحيدي لخطاب الوزيرين وآلياتها الخاصة بها، لاسيما وأن هذه القراءة لم تأت من فراغ، بل هي ثمرة قارئٍ متمرسٍ في قراءة الشعر والنثر ونقدهما، كما أنها نتيجة تعايش عن قرب بين أحضان السلطة السياسية للصاحب بن عباد، أما أبو الفضل بن العميد فقد أثار مشهدهان منه ثائرة أبي حيان كما أشار إلى ذلك خليل المنصور في مقدمة كتاب «أخلاق الوزيرين» ولم يكن قد حضر مجلسه إلا

القارئ تتبعها وتلمسها، وتبعاً لذلك، اقتضى منا الحديث عن جهاز القراءة لدى التوحيدي معرفة نمط التلقي لدى التوحيدي لخطاب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، وردود أفعاله تجاه مدرسة الصنعة. ولهذا الأمر، قد يلاحظ أن نظرية التلقي لها حضورها في طبيعة القراءة المقترحة، وفي مصطلحاتها مثل جهاز القراءة، أفق الانتظار، الجماعة التفسيرية... وفي هذا اعتماد على بعض فرضيات جمالية التلقي دون أن يعني ذلك الأخذ الحرفي لها.

انطلاقاً مما تقدم، يمكن طرح مجموعة من التساؤلات التي تؤطر بحثنا، وتبين عناصرها على النحو الآتي:

كيف قرأ التوحيدي خطاب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد؟

هل كانت قراءته تلقائية نابعة من الذوق الشخصي؟ أم أنه تجاوز كل الحدود إلى القيام بعملية تشريحية أهله للانفتاح على آفاق انتظار عديدة؟ وما أهم المآخذ النقدية التي رصدتها التوحيدي لطريقة الكتابة لدى الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد؟

(1) منطلقات القراءة: مداخل أولية.

وظف أبو حيان التوحيدي في نقده للوزيرين مختلف معارفه وتصوراته الخاصة للأدب والكتابة، وبإلقاء نظرة على عنوان مقدمة كتاب «أخلاق الوزيرين» ومقدمته، نلمس طقس القراءة وحدود استراتيجيتها. وأول ما يلاحظ على عنوان الكتاب،

هاتين المرتين.

في الأولى: شاهد أعوان ابن العميد يخرجون من مجلسه رجلا صائحا.

وفي الثانية: مدحه أحد شعراء الكرخ فلم يجزه شيئا رغم حاجته الماسة، وهذا ما جعل أبا حيان يتتبع أخبار ابن العميد ونقائصه ويجمعها مع أخبار صاحب، ويظهر مثلثهما ونقائصهما للناس في كل ما فعلوه وقالوه.⁽⁷⁾

ولقصة تأليف «أخلاق الوزيرين» غصة في حلق أبي حيان التوحيدي الذي لم ينل سوى الإهمال والتحقير في مجالس صاحب بن عباد، على الرغم من مكانته الأدبية المرموقة؛ إذ إن الأسباب التي دفعت به إلى تأليف هذا الكتاب، كانت ظاهرة واضحة، لم يحاول إخفاءها، حيث هجر أهله وقصد صاحب، إلا أنه خيب أمه وأساء معاملته، وقد عبر التوحيدي عن ذلك بقوله: «ولما نالني هذا الحرمان الذي قصدني به وأحفظني عليه وجعلني من بين جميع غاشية ورده فردا أخذت أتلافى ذلك بصدق القول عنه في سوء الثناء عليه والبادي أظلم»⁽⁸⁾. تلك إذا آثار لا يندمل جرحها إلا بالوقوف عند صاحب بن عباد وتتبع سقطاته وهفواته!

لذلك انبنت قراءة أبي حيان التوحيدي لخطاب الوزيرين بالأساس على استراتيجية واضحة المعالم، مهد لها أبو حيان التوحيدي بمقدمة أساسية ومهمة، تناول فيها فن الهجاء وأغراضه وهي قراءة تعضد اهتمامات أبي حيان التوحيدي الأدبية والفكرية؛ وترصد متابعاته الدقيقة لما كتب قبله حول فن الهجاء، إنها قراءة لها حجتها ومبرراتها. وفي مثل

هذه الحجج ما يعلم الجاهل ويرشد المتحير «قد ذكرنا - حاطك الله - جملة من القول رأينا تقديمها والاستظهار لها قبل أخذنا فيما أنشأنا له هذا الكلام، قصدا لغل حد الطاعن، وحسما لمادة الحاسد، وتعلما للجاهل، وإرشادا للمتحير، واحتجاجا على من يدل بحفظ اللسان، وكتمان السر، وطى القبيح ومسالمة الناس، واغتفار المنكر؛ وهو مع ذلك كالأسد في غياله»⁽⁹⁾.

فالتوحيدي، يحاول تبرئة نفسه بتقديم أسباب إقدامه على هجاء الوزيرين، دون أن يغفل الإشارة إلى ما يلحق فن الهجاء من تزييد فقال: «إن الكلام في حمد من يحمد، وذم من يذم، إن نمق تنميحا دخله التزييد، والمتزييد مقلي، وإن أرسل على غراره شأنه التقصير، والمقصر معجز»⁽¹⁰⁾.

والتوحيدي يرى بأن فن الهجاء والمديح متضادان، دون أن ينسى الإشارة إلى السؤال المضاد للشعر القائم على الهجاء دون أي اعتبار للأخلاق والدين «فأما الشعراء وأصحاب النظم، وأرباب المدح والهجاء، والتب والحمد، والتشنيع والتحسنين كالطم والرّم، لا يكسبون إلا بهذا المذهب، ولا يعيشون إلا على هذا الاختيار، ولهم الهجاء المنكر، والقول المخزي، والقذع المؤلم، واللفظ الموجه، والتعريض الذي يتجاوز التصريح، والتصريح الذي يجمع كل قبيح، وأمرهم أظهر من أن يدل عليه، وشأنهم أبين من أن يردد القول فيه»⁽¹¹⁾.

على أن مدار الهجاء عنده يقوم بالأساس على «الصدق في القول وعلى تقديم الحق في العقد، وقصد الصواب عند اشتباه الرأي وغلبة الهوى»⁽¹²⁾. لذلك

مناقشة أخلاق الوزيرين أدبيا وسياسيا بناء على الملحوظات النقدية التي يبديها في حقهما، ومثل هذه الملحوظات تنفي عن نفسها التحامل على الوزيرين دون التوفر على شاهد أو برهان «ولست أدعي على ابن عباد ما لا شاهد لي فيه، ولا ناصر لي عليه، ولا أذكر ابن العميد بما لا بينة لي معه، ولا برهان لدعواي عنده، وكما أتوخى الحق عن غيرهما إن اعترض حديثه في فضل أو نقص، كذلك أعاملهما به فيما عرفا بين أهل العصر، باستعماله، وشهرا فيهم بالتحلي به، لأن غايتي أن أقول ما أحطت به خبرا، وحفظته سماعا»⁽¹⁶⁾. وفي مقابل ذلك، يرى أبو حيان التوحيدي أن الانتماء إلى المؤسسة الثقافية الرسمية التي كونها الصاحب بن عباد وابن العميد أمر سهل، يتطلب فقط الانتماء إلى حراس المؤسسة؛ والتضخيم من «الأنا» النثرية المتعالية بسلطتها المعرفية والسياسية «وسهل علي أن أقول لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما، ولا يكون إلى يوم القيامة من يعشرهما اصطناعا للناس، وحلما عن الجهال... وأنهما بلغا في المجد الذروة الشماء، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق، وأن أهل الأرض دانوا لهما، وأن النقص لم يشنهما بوجه من الوجوه، وأن العجز لم يعترهما في حال من الأحوال»⁽¹⁷⁾.

2) التوحيدي وأخلاق الوزيرين: القراءة عبر وساطات قرائية:

توسل أبو حيان التوحيدي في بناء قراءته لخطاب الوزيرين عبر متوسطات قرائية سابقة لأدباء وكتاب، عاينوا عن قرب أخبار الوزيرين، وشكلت إلى جانب قراءة أبي حيان التوحيدي، ما يمكن أن نسميه «بالجماعة التفسيرية» على حد تعبير «ستانلي

جاء هجومه عنيفا على الشعراء بعد أن أحس بابتعاد الشعر عن رسالته الحقيقية في الحياة، وخروجه عن إطاره الحقيقي في زرع قيم أخلاقية وجمالية، وقد جاء هذا النقد لدى أبي حيان التوحيدي مدعما بحجج من القرآن والشعر «فإن قلت هؤلاء شعراء، والشعراء سفهاء، ليسوا علماء ولا حكماء، وإنما يقولون ما يقولون، والجشع باد منهم، والطمع غالب عليهم، وعلى قدر الرغبة والرغبة يكون صوابهم وخطأهم، ومن أمكن أن يزحزح عن الحق بأدنى طمع، ويحمل على الباطل بأيسر رغبة، ممن يكون لقوله إثناء، أو لحكمته مضاء أو لقدره رفعة، أو في خلقه طهارة»⁽¹³⁾.

وما دام الشعراء قد تخلوا عن وظيفة الشعر بإتباع مصالحهم الخاصة، والتقلب في مواقفهم، أورد أبو حيان التوحيدي قول الشاعر:

لا تَصْحَبَنَّ شَاعِرًا فَإِنَّهُ

يَهْجُوكَ مَجَانًا وَيُطْرَى بَثْمَنَ

وهذا لأنه مع الريح، أين ما مالت به، مال، يتطوح مع أقل عارض، ويُجيب أول ناعق، ويشيم أي برق لآح، ولا يُبالي في أي واد طاح؛ فقد جمع دينه ومروءته في قرَن تهاؤنا بهما، وعجزا عن تدبيرهما»⁽¹⁴⁾.

ولا يقتصر الأمر هنا على الشعر دون النثر، فالتوحيدي يضع «مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر، والذي لا بد منه فيهما السلامة والدقة، وتجنب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص»⁽¹⁵⁾.

نحن إذا، أمام كتاب نقدي تحليلي، أراد صاحبه

فيش» بوصفها «قطاعاً من ثقافة أو مجتمع أكبر، حيث يشترك جماعة من القراء في مجموعة من الافتراضات، والمصطلحات الفنية واستراتيجيات القراءة والإيديولوجيا، التي تسمح بقراءة النص بأكثر من طريقة، والتي تسمح كذلك بالوصول إلى نتائج مشتركة فالجماعة التفسيرية، من هذا المنظور عبارة عن جماعة من القراء يمتلكون أعراف تأويل مشتركة، واستراتيجية قراءة متقاربة، كما أنهم يصدرون عن أفق تاريخي واحد، وتحركهم هواجس إيديولوجية متشابهة».⁽¹⁸⁾ ولعل أبرز مظهر من مظاهر الجماعة التفسيرية يتجلى في عدم استجابتهم لإكراهات مدرسة الصنعة أو البلاغة اللفظية، فالتوحيدي بحسه النقدي لم يستجب ولم يسر في ركب اللاهجين بمدرسة ابن عباد، الذي استطاع بسلطته السياسية والمعرفية أن يفرض أفق تلقي مدرسة الصنعة، ويقيم حولها احتفالات خاصة بها في مجالسه أو في غيرها، إذ إنها سعت إلى تقديم نفسها في موقع القوة والاستعلاء.

والواضح من خلال كتاب «أخلاق الوزيرين»، أن قراءة أبي حيان التوحيدي له تتحرك داخل آفاق متعددة: شخصية، أدبية، سياسية، فمنطلقات قراءته تخالف مخزون الذاكرة الذي شكلته آراء النقاد، وكتب التراجم حول شخصية الصاحب بن عباد، من هنا تأتي انتقادات أبي حيان التوحيدي للوزيرين بناء على قراءته الشخصية، إضافة إلى جانب القراء الآخرين الذين شاركوا أبا حيان التوحيدي في الرؤية والتلقي نفسها.

وفي الحقيقة نجد أبا حيان التوحيدي دائماً وفيما لذكر مصادره في القراءة، فحين سأله الوزير ابن

سعدان عن بلاغة الصاحب من بلاغة ابن العميد أجابه قائلاً: «قلت: قد سألت جماعة عن هذا، فأجابني كل واحد بجواب إذا حكيتة عنه كان ما يقال فيه ألصق وكنت من الحكم عليه وله أبعده».⁽¹⁹⁾ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أبا حيان التوحيدي يتحفظ في الحكم على ابن عباد. في حين يعزو الأحكام إلى أصحابها، حتى لا يكون عرضة للنقمة من طرف الصاحب وأعوانه، وآراء «الجماعة التفسيرية» التي انتقاهما التوحيدي بعناية تنصب أغلبها في اتجاه أبي حيان التوحيدي نفسه، ودرء لكل عتاب يمكن أن يصدر من قارئ «أخلاق الوزيرين». يقول أبو حيان التوحيدي: «انظروا إلى هذا الكذب الذي ألفه، وإلى هذا الزور الذي فوقه، والباطل الذي وصفه، والحق الذي دفعه... تبلغ به قلة الدين وسوء النظر فيما يتعقب بالتقبيح والتحسين أنه يمدح واحداً مقروفاً بالزندقة والكفر، ويقرظ آخر معروفًا بالإلحاد والسخف».⁽²⁰⁾

ووفقاً للتوجه الأخلاقي الذي آمن به أبو حيان التوحيدي، عمل على رصد مساوئ الأخلاق التي انتشرت في عصره، وبه اعتمد في نقد سلوك الوزيرين وأخلاقهما.

وبالسؤال والتساؤل، حاول أبو حيان التوحيدي الاقتراب من آراء الجماعة التفسيرية، والإنصات لأصوات متعددة لشعراء، وكتاب، وساسة؛ وهم يترصدون ملامح من صورة ابن عباد الأخلاقية والثقافية والسياسية. «وقلت للزعفراني⁽²¹⁾ الشاعر، وكان من أهل بغداد، أصدقني أيها الشيخ عن هذا الإنسان (الصاحب بن عباد) كيف وجدته في طول ما عجمت عوده، وتصفحت أخلاقه، وخبرت دخلته،

الدولة، وهو اليوم شاه الملوك، حتى ملأت عىابك تبرا، وحقائبك ورواحلك زادا؟

فقال: «دعنى مما هنالك، والله إنه لخوار فى المكارم، صبار على الملائم، زحاف إلى المائم، سماع للنمائم، مقدم على العظائم، يدعو إلى «العدل والتوىد» وىدعى الوعد والتخلىد... وىشتمل على الفسوق والفجور، وىمسى وهو بور».⁽²⁵⁾

هكذا تبدو صورة ابن عباد قائمة بناء على آراء أدباء عصره وشعرائه، أو من خلال تسلىط الضوء على الأشياء الأكثر إثارة فى شخصية الصاحب بن عباد، وهى سرعة التقلب فى المزاج، والبراعة فى استقطاب الناس للوقوع فى حبال مكره. وقد يلاحظ على النصوص السابقة، اشتراك قرائها فى التركيز على الرذائل فى أخلاق الوزىر الصاحب بن عباد، كما هو الشأن فى الحكاية الآتية، وقد تعمدت نقل النص بكامله حفاظا على وحدة الفكرة، من ذلك قول أبى حىان التوىدى: «وكان ابن عباد شىد السفة عجىب المناقضة، سرىع التحول من هيئة إلى هيئة، مستقبلا للأحرار بكل فرىة وفاحشة، كان ىقول للإنسان إذا قدم إلىه من أهل العلم: تقدم ىا أخى! وتكلم، واستأنس، واقترح، وانبسط ولا ترع واحسبنى فى جوف مرقة، ولا ىهولك هذا الحشم والخدم، وهذه الغاشية والحاشية... فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية، وشرف العلم أعلى من شرف المال، فلىفرخ روعك ولىنعم بألك، وقل ما شئت.. فلست تجد عندنا إلا الإنصاف والإسعاف والإتحاف والإطراف... والمؤانسة والمقابلة (...)

حتى إذا استقى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحىل، وسال الرجل معه فى حدوره على مذهب

فقال: وجدته كلىل الكرم، حاد اللوم، رقىع الظاهر، مرىب الباطن، دنس الجىب، مثرىا من العىب، كأنه خلق عبثا مما ملئ خبثا؛ سفهه ىنفى حكمة خالقه، وغناه ىدعو إلى الكفر برازقه.. ولو كان لى ببغداد قوت ىحفظ على ماء الوجه ما صبرت على هذا الرقىع البارد المجنون المطاع ساعة»⁽²²⁾. هكذا ىقف الشاعر الزعفرانى عند الجانب الأخلاقى فى شخصية الصاحب بن عباد التى جمعت بىن اللؤم، والجنون، والرقاعة، وسلطة الخواء.

وفى الإطار نفسه، ىعضد أبو حىان التوىدى آراء الزعفرانى برأى آخر للمسىبى «قلت للمسىبى: ما قولك فى ابن عباد؟

فقال: له فى الخلاة قرآن معجز، وفى الرقاعة آية منزلة، وفى الحسد عرق ضارب، وفى الكذب عار لا ىزب؛ لا ىنزع عن المساوى إلا مللا، ولا ىأتى الخىر إلا كسلا؛ ظاهره ضلالة، وباطنه جهالة، ولىس له فى الكرم دلالة، ولا فى الإحسان إلا الأحرار آلة؛ فسبحان من خلقه غىظا لأهل الفضل والأدب، وأعطاه فىضا من المال والنشب».⁽²³⁾

ىبدو من خلال النص، حرص أبى حىان التوىدى على جمع المعطيات المتناقضة فى شخصية الصاحب بن عباد على مستوى تسىير الحكم والبعد الأخلاقى، بل أكثر من ذلك ىستشهد بأراء المقربىن منه سواء أكانوا عربا أم أعاجم، وهى قراءة ذكية ومراوغة من التوىدى، أحسن انتقاء الآراء من العجم فى وصف الصاحب بن عباد «وقلت لأبى بكر الخوارزمى⁽²⁴⁾ الشاعر، وكان قد خبره: كىف وجدت الصاحب، وقد أعطاك وأولاك وقدمك وأترك، وسفر لك إلى عضد

أو بأن لا يبكت الرجال، فلا هو بريء من النقص، ولا هو غير مستحق للتبكي، وليس من لا يمكن أن يواجه بالنقص الذي فيه وبالتوبيخ الذي يستحق على فعله، ليد له في السلطان قوية، وشمس له في الدولة طالعة».⁽²⁸⁾

ويبدو أن أبا حيان التوحيدي في قراءته للصاحب بن عباد، ركز على مساءلة كل ما يصدر عنه من سلوكات وأفعال في مجال تدبير أمور الحكم.

لندع الشعراء جانباً، وننظر إلى هذا الذي أورده أبو حيان التوحيدي لأحد الكتاب يصف فيه الصاحب بن عباد «وسمعت الخثعمي الكاتب كاتب علي بن كامة يقول: ما رأيت في طول عمري مع علو سني وكثرة تجاربي وشدة تتبعي رجلاً أجمع للمخازي والمقايح والرّقاعات والجّهالات والخسّاسات والفواحش والخبائث من ابن عباد، أفيل الناس رأياً إذا ارتأى، وأنكلهم عن الخصم إذا تراءى، وأقلهم وفاء لمن جعله الله ولي نعمته، وأوقحهم وجهاً مع كل إنسان، وأحدهم لساناً بكل خنت وفحش، وأحسدّهم لنظير ولن دون النظير، وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير».⁽²⁹⁾

هكذا يغدو الموقف من الصاحب بن عباد أقرب إلى المحاكمة، وفي الآن ذاته نابعا من أفق تاريخ موحد بين أبي حيان التوحيدي والجماعة التفسيرية، وهو أفق يرسم لنا صورة قائمة للصاحب بن عباد سياسياً وأخلاقياً، بدءاً من جمعه لمختلف أنواع الرذائل، من هنا إصرار أبي حيان التوحيدي على المضي ضد التيار الآخر المؤيد للثقافة المتعالية للصاحب بن عباد، بحيث كان «لا يسمع إلا صدق

الثقة، وركب في مناظرته... تَمَرَّ له، وتَغَرَّ عليه، واستحصد غضبا وتلظى لها، وقال بعد وثبتين أو ثلاث: يا غلام! خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس وضعه فيه، فإنه معاند... متعجرف وقاح، أعجبه صبري، وغره حلمي، ولقد أخلف ظني، وعدت على نفسي من أجله بالتوبيخ».⁽²⁶⁾

واللافت للانتباه في هذا النص عن الصاحب بن عباد وأخباره، أن أبا حيان التوحيدي استطاع بامتلاكه طاقة لغوية أن يجعل من كبرياء الصاحب وسطوته محل سخرية وازدراء. وحدها سطوة اللغة تعاند سلطة الصاحب بن عباد، من هنا يظهر أن أفق التغيير في كتاب «أخلاق الوزيرين»، هو ذلك ما تتطلع إليه الذات القارئة؛ وهي تلج مناطق حساسة من شخصية الصاحب بن عباد، يتحسسها القارئ في عيوب الصاحب الأخلاقية، وتظل قراءة أبي حيان التوحيدي للصاحب بن عباد مستمرة في تجوالها عبر نقل آراء غيره: «قلت للتميمي الشاعر المصري المعروف بالرغيب: كيف ترى هذا الرجل أعني ابن عباد؟ فقال طويل العنان في اللؤم، قصير الباع في الكرم، وثابا على الشر، مقعدا عن الخير، كافرا بالنعم، متحرشا بالنقم، جباها بالمكروه، سفيها في الجملة، خليعا في التفصيل».⁽²⁷⁾ وفي السياق ذاته، يورد لنا أبو حيان التوحيدي رأياً لشاعر آخر ذي تجربة ودراية بمعرفة الناس «وقلت للجيلوهي الشاعر، وكان شيخا له تجربة ومعرفة بأيام الناس ومشاهدة، حدثني عن ابن عباد.

قال: مغرور من نفسه لمواتة جده، وتصديق ذوي الأطماع في جميع دعواه، وما أحوجه إلى إنصاف الناس من نفسه بأحد شيئين: إما بأن لا يدعي الكمال

الناس بالدخل والخرج»⁽³⁵⁾. وعلى هذا المنوال، يمضى أبو حيان التوحيدى فى محاولة النبش فى خبايا ابن العميد النفسية، ولهذا الغرض ينقل لنا رأى الغويرى فى قوله: «وليس كذلك ابن العميد، فإنه لا يحب أن تمدحه إلا بأكرم الخصال، وأشرف الفعال، وأن يكون قولك عن عقد، ووصفك عن يقين، وإخبارك عن تعجب، وتعجبك عن استبصار، واستبصارك عن معاينة، وفيه مع ذلك كياء مخنث مجفو، وسفه ضره رعاء، ونميمة كنة سليطة»⁽³⁶⁾.

يضاف إلى صفات السفه واللؤم اللذين امتاز بهما ابن العميد، صفة العقوق كما يذكر أبو حيان التوحيدى فى هذه الرواية «وكان عقوقه من وجه عجيب، جاء إلى ذخيرات فى مواضع ووضع يده عليه، وعرف صاحبه مكانها، وخط خطوة عليها، وروى ذلك كله عن شيخه وعن جميع من كان له فيه نصيب، وإما بحق الإرث أو بحق الهبة، حتى قامت قيامة ذلك الشيخ، فدعا عليه، وفضحه عند الناس، وبرئ منه، وقدح فى ولادته»⁽³⁷⁾.

إلى جانب ذلك، أخذ أبو حيان التوحيدى على ابن العميد قصوره فى فهم الفلسفة والاكتفاء فيها بالدعوى باللسان فقط من غير بصيرة، وسير على ما رسمه حكماؤها «فأما ابن العميد، فمن هذا الذى يتفلسف على بصيرة ومعرفة، وهو يرضى سيرته، ويحمد هديه، ويراه قدوة ويعده سعيداً؟

كأن الفلسفة إنما تكون بالدعوى باللسان، من غير عمل ومعاينة ورياضة، وقمع للشهوة إذا غلبت، وردع للنفس إذا طغت، واستصلاح للأموال بالعدل

سيدنا، وأصاب مولانا، وما له فى الزمان ثان، ولم يعرف فيمن تقدم له نظير»⁽³⁰⁾. على الرغم من أن وزيراً فى قامة الصاحب وفى «هذه المملكة الواسعة العريضة على ما ترى من التمكن والاستعلاء وهو لا يحصل شيئاً من خرابها وعمارتها، ولا ينظر فى مصلحتها ومفسدتها، ولا يعرف المختلس منا ولا الضائع بين الناظرين، فيها أعمال باثرة، وبلاد غامرة، وأمواى محتجنة، وطمع مستحكم، وضعف غالب وعدوراصد»⁽³¹⁾.

ووفق مبدأ السؤال الذى آمن به أبو حيان التوحيدى، يقول أيضاً «وسألت العمارى عنه فقال: الرجل ذو خلة، ولقد سأله ليلة شيخ من خراسان فى الموسم عن قوله عز وجل: (ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)⁽³²⁾. ما مرتبة الصلاح المذكور فى الثانى من النبوة الثابتة فى الدنيا؟ فأضرب عن المسألة ودافع بصدرها ولم يجر كلمة فيها»⁽³³⁾.

ذاك هو الصاحب بن عباد كما انتهت آراء الجماعة التفسيرية إلى تعريفه «وقد طال وكثر، ولعل التقصي لو وقع لآزداد طولاً، فإنه تنفست أيامه وترددت أحاديثه»⁽³⁴⁾. وعلى الخطى نفسها، أورد أبو حيان التوحيدى آراء أخرى تتعلق بشخصية ابن العميد. يقول عنه: «فإنه كان باب آخر، وطامة أخرى وكان فضله من جنس ليس لابن عباد فيه نصيب، ونقصه من ضرب لم يكن له فيه ضريب، كان يظهر حلما تحته سفه، ويدعى علما هو به جاهل، يرى أنه شجاع وهو «أجبن من المنزوف شرطاً» وكان يدعى المنطق وهو لا يفي بشيء منه... ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب، وكان أجهل

المؤثر فيها، وطلب السعادة والفوز في العاقبة على ما رسمه علماؤها، وحققه حكماؤها». (38)

والجدير بالذكر هنا، أن أبا حيان التوحيدي في قراءته للوزيرين، انتهى إلى طرح أسئلة تبين مواطن الاختلاف والائتلاف بينهما فانتقلت قراءته لهما من صيغة المفرد إلى صيغة المثنى في مثل قوله: «وقلت لأبي السلم ت الكائنين حية بن علي الشاعر القحطاني: أين ابن عباد من ابن العميد؟ فقد زرتهما منتجعا، وزرتهما جميعا. فقال: كان ابن العميد أعقل، وكان يدعي الكرم، وابن عباد أكرم، وهو يدعي العقل: وهما في دعويهما كاذبان وعلى سجيتهما جاريان». (39)

والملاحظ أن الآراء التي اصطفها أبو حيان التوحيدي، تتسم بخصيصتي السؤالية والجوابية اللتين تخلقان نوعا من التوتر والتنامي الحوارية، انطلاقا من هذا المعطى نقرأ الجملة الآتية: «قلت للخليلي أيضا: ومع هذا أين ابن عباد من ابن العميد؟ فقد خبرت ذلك بملازمتك، وعرفت هذا بتعرضك» ففي هذا الاستفهام ينطوي السؤال الذي يشكل حدود استراتيجية الحوار. «فقال: (أي الخليلي) أما ذاك فكان لا يعطيك، ولكنه كان لا يطعمك وأما هذا فإنه يطعمك حتى يستفرغك، ثم يرميك بالحرمان أو بعبء شبيه بالحرمان، وتفسير هذا عندك يا أبا حيان.

قلت: كيف كان علم ذاك من علم هذا.

قال: كان ذاك يدعي الفلسفة دعوة شديدة، ولكن لا ينادي عليها في الأسواق، وهذا يدعي علم الدين، وهو يعرضه فيمن يريد.

قلت: فكيف كان ابن عباد لأهل العلم؟

قال: إن كذبوه وخدعوه وموهوا عليه وناقوه وتملقوه قربهم وأدناهم، وأكرمهم وأعطاهم، وإن صدقوه وماتوه وثبتوا له أقدمهم وأقصاهم، وحرمهم وأخزاهم... على أنني قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الإطالة أو صيانة للقلم من رسم الفواحش، ونث العضلة، وذكر ما يسمح مسموعه، ويكره التحدث به». (40)

ومتأمل آراء الجماعة التفسيرية التي انتقاها أبو حيان التوحيدي، يخلص إلى جملة من الملاحظات يمكن إجمالها فيما يلي:

(1) عدم استجابة أبي حيان التوحيدي والجماعة التفسيرية لإكراهات السلطة السياسية للوزيرين ولاسيما الصاحب بن عباد.

(2) حاول التوحيدي في «أخلاق الوزيرين» عبر جدل القراءة، نفس الخطاب المؤسسي الرسمي السائد، ومن ثم كانت قراءة أبي حيان التوحيدي للوزيرين، تحمل في عمقها جرأة السؤال والتساؤل عن الطابوهات المحرمة في «أخلاق الوزيرين».

(3) استجابة أبي حيان التوحيدي فيما نقله من آراء الجماعة التفسيرية، أتت آلية إذ لم يكتف بعرضها على مبضع النقد والمساءلة، وبالتالي كانت قراءته استعراضية تقوم على استحضار قناعاته الفكرية والسياسية، قراءة تكتفي بأن تكون شهادة على العصر الذي عاش فيه.

(4) حرص التوحيدي في نقله لآراء الجماعة التفسيرية على إسنادها إلى أصحابها، مع التركيز

مخالفا لتيار أهل السلطة الممارسين للكتابة، بل أكثر من ذلك كان بحكم الظروف التي مر بها والتوجهات التي تأثر بها (بلاغيا - فلسفيا - سياسيا)؛ يحاول أن يعيد للأدب بريقه وطابعه العربي بعد ما أوشك على الفرغ في طوفان الصنعة التي فرضها كتاب الدواوين والمنحدر أغلبهم من أصل فارسي كعبد الحميد الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد والهمذاني... فالتوحيدي في خلافه مع أنصار «مدرسة الصنعة» كان يصدر في ذلك انطلاقا من فهم خاص للأدب، وبمقارنة شكلية بسيطة، يغدو أبو حيان التوحيدي أقرب إلى القارئ القوي Strong Reader بمصطلح «هارولد بلوم» أي «القارئ الذي لا يستجيب لمحاولة الهيمنة التي يفرضها نمط التلقي العام وأفق القراءة السائدة. وبدلا من الاستجابة أو الانصياع لإكراهات القراءة الجماعية المهيمنة، يعتمد هذا النوع من القراء إلى مجابهة هذه الهيمنة من أجل التعبير عن قراءته الخاصة والمختلفة عما هو سائد، ومن هنا فقراءة هذا النوع من القراء تكون أول بادرة اعتراض على نمط التلقي العام»⁽⁴¹⁾.

للقراءة إذا عند أبي حيان التوحيدي، أجهزتها وآلياتها الخاصة بها، وهي ناشئة من خصوصية المعرفة النقدية التي تأثر بها، ومن التوجهات والأنساق التي انتظم فيها. وعلى هذا الأساس، يغدو جهاز القراءة عند أبي حيان التوحيدي مشروطا بأفق انتظار يعيد صياغة ما قرأه وإعادة توجيهه. وهذه العملية تتم وفق مجموعة من المعايير الجمالية والشكلية التي اكتسبها القارئ من خلال امتهانه للوراقة أو في حواراته مع أهل الفكر والأدب والسلطة. وأفق الانتظار هذا، يتكون في نظر «ياوس» رائد

على ما يتوفر عليه هؤلاء القراء من تجربة ومعايشة عن قرب للوزيرين وذلك من خلال العبارات الآتية:

- قلت للزعفراني الشاعر: كيف وجدته في طول ما عجمت عوده، وتصفحت أخلاقه وخبرت دخلته.

- قلت لأبي بكر الخوارزمي الشاعر وكان قد خبره.

- ما رأيت في طول عمري مع علو سني وكثرة تجاربي وشدة تتبعي رجلا (أعني الصاحب).

- وقلت للجيلوهي الشاعر، وكان شيخا له تجربة ومعرفة بأيام الناس ومشاهدة حدثني عن ابن عباد.

(3) مأخذ القراءة النقدية على خطاب الوزيرين:

قد تتحول القراءة أحيانا لدى أبي حيان التوحيدي إلى مجال لتفريغ اهتماماته الأدبية بالكيفية التي يرغب فيها بالاعتماد على مقاييس نقدية. إذ ليس كتاب «أخلاق الوزيرين» مرتبطا فقط بذكر مساوئ الوزيرين الخلقية، بل يتعداه أيضا إلى رصد مأخذ حول طريقة الكتابة وقول الشعر عند الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، ولهذا فإن معايير الكتابة والنظرة إلى الأدب عند أنصار مدرسة الصنعة في القرن الرابع الهجري - رغم انتشارها في مختلف أرجاء البلاد -، لم تعد مستساغة عند أبي حيان التوحيدي، فالأدب الذي بشر به ابن العميد والسائرون خلفه من عناية بالصنعة والتميق اللفظي، تعرض للنقد من قبل أبي حيان التوحيدي بناء على روح العصر الذي تحكم في رؤيته للأدب ووظيفته، فلم يعد التلقي لمدرسة الصنعة مقبولا عند أبي حيان التوحيدي؛ ذلك أن أفق انتظاره كان

الثالث الهجري على يد أبي تمام خاصة، وقد أفرط في طلبها حتى أنكر ذلك عليه، ورأى بعض النقاد في هذه النزعة خروجاً على عمود الشعر العربي لما فيه من تشويه لصورته ونيل من أصالته واحتفظ النثر طيلة القرن الثالث بسلامة طبعه وسلاسته، ولم تتسرب إليه جرثومة الصناعة والتعمل إلا في أواسط القرن الرابع وبفارس خاصة⁽⁴³⁾.

والقرن الرابع رغم سمو الأدب فيه وكثرة عطائه، إلا أنه لم يكن بمنأى عن الصراعات الأدبية التي جاء بها أصحاب مدرسة الصنعة، فما كان من أبي حيان التوحيدي إلا أن يواجه أصحاب هذه المدرسة وينتقد أسلوبهم الأدبي حفاظاً على سلامة الأدب، يقول أبو حيان التوحيدي: «وكانَ ابنُ عبّادٍ شديدَ الحسدِ لمن أحسنَ القولَ، وأجادَ اللَّفظَ، وكانَ الصوابُ غالباً عليه، وله رفقٌ في سرد حديث، ونيقة في رواية خبر، وله شمائلٌ مخلوطةٌ بالدماثة، بين الإشارةِ والعبارةِ، وهذا شيءٌ عامٌ في البغداديينَ وكالخاصِّ في غيرهم»⁽⁴⁴⁾.

من هنا امتلك أبو حيان التوحيدي وعيا نقدياً بالخطر الذي آلت إليه الكتابة في عهده «قلت لأبي عبيد الكاتب النصراني ببغداد، وكان سهل البلاغة حلو اللفظ حسن الاقتضاب، غريب الإشارة، مليح الفصل والوصل: كيف ترى كتابة ابن عباد؟

فقال: هي شوهاء فيها شيء في غاية التنقيح، وفيها شيء في غاية الركافة، وبينهما فتور راكد، بمذاهب المعلمين الحمقى المتعاقلين أشبه منها بمذاهب السلف الأولين من الكتاب وأصحاب الدواوين»⁽⁴⁵⁾.

مدرسة التلقي من ثلاثة مكونات وهي:

- «التجربة المسبقة التي اكتسبها الجمهور عن الجنس الذي ينتمي إليه النص.

- شكل وموضوعاتية الأعمال السابقة التي يفترض معرفتها.

- والتعارض بين اللغة الشعرية واللغة العملية أو التعارض بين العالم التخيلي والواقع اليومي»⁽⁴²⁾.

وبهذا المعنى، تبرز الحاجة إلى معرفة أهم المآخذ النقدية التي رصدتها أبو حيان التوحيدي في نقده لطريقة الكتابة عند الوزيرين صاحب بن عباد وابن العميد.

3- 1 - فتنة اللفظ وسراب المعنى:

شكلت كتابة الوزيرين محطة مساءلة من قبل أبي حيان التوحيدي، امتدت بأسئلتها إلى نقد مدرسة الصنعة، ولعل أبرز مظهر من مظاهر هذه المؤاخذات، هو الذي يتجلى في الكلف الشديد باللفظ عند رواد مدرسة الصنعة. لذلك، يصبح الحديث عن صاحب بن عباد وعن ابن العميد وعن ابنه أبي الفتح وغيرهم حديثاً عن جماعة اللفظين، وقد جاءت التسمية من إسرافهم وفتنتهم باللفظ، والمبالغة في تميمق العبارة إلى حد الاختلال في التوازن بين اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون. والجدير بالذكر هنا، أن أبا حيان التوحيدي زامن نزعة اللفظيين منذ بدايتها فكان ناقدًا وشاهدًا على خصائص هذه النزعة «ذلك أن عصر التوحيدي يعد فترة تحول خطير في اتجاه الأدب العربي وفي النثر خاصة. كانت «الصناعة» قد دخلت الشعر منذ القرن

الاحتفال باللفظ هو ما يسم جماعة اللفظيين أو مدرسة الصنعة. لهذا السبب عد أبو حيان التوحيدي مساوئ كتابة الصاحب في قوله: «وابن عباد بلي في هذه الصناعة بأشياء كلها عليه لا له، وخاذلته لا ناصرته، ومسلمته لا منقذته فأول ما بلي به أنه فقد الطبع، وهو العمود، والثاني العادة وهي المؤاتية، والثالث الشغف بالجاسي من اللفظ وهو الاختيار الرديء، والرابع تتبع الوحشي وهو الضلال المبين، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى، والسادس استكراه المقصود من المعنى، واللفظ على النبوة، والسابع التعاضل المجهول بالاعتراض، والثامن إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص، والتاسع قلة الاعتاظ بما كان - للثقة الواقعة في النفس - من الفائت (أي الغائب)؛ والعاشر تنفيق المتاع بالاعتذار في سوق العز وهذه كلها سبل الضلالة وطرق الجهالة»⁴⁸ وهذه المساوئ يمكن أن تسري على الكلام كله وليس فقط على كتابة ابن عباد، حيث لا ينبغي استعمال ألفاظ سوقية ولا وحشية غريبة، ولا ينبغي كذلك الاحتفال باللفظ دون المعنى أو العكس، وقد قال أبو حيان التوحيدي أيضا: بإمكان تسرب العجمة إلى اللفظ كما تتسرب إلى المعنى وذلك في قوله: «وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ، ويشرد اللفظ كما يند المعنى»⁽⁴⁹⁾.

وأبو حيان التوحيدي من الملحين على ضرورة الطبع بما له من أهمية في عملية الإبداع الأدبي، وعلى هذا الأساس يستجيب لنصوص أبي إسحاق الصابي وينقص من قيمة ابن عباد إذ «طباع الجبلي مخالف لطباع العراقي يثبت مقاربا فيقع بعيدا ويتناول صاعدا فيتقاعس قعيذا»⁵⁰. وواضح في نقده لابن

لهذا السبب، انتقد أبو حيان التوحيدي مدرسة الصنعة المحكومة بألة السلطة، والتي لا تعكس عند أبي حيان التوحيدي في نهاية الأمر نتاجا أدبيا؛ لأنها ببساطة لا تعكس تجربة إنسانية حقيقية، كما أنها فاقدة لحرارة الواقع المعيش. هي إذا نزعة دخيلة مثلت خطرا على الأدب واللغة، يقول أبو حيان عن الصاحب بن عباد: «وشتم يوما رجلا فقال: لعن الله هذا الأهوج، الأعوج، الأفلج، الأفحج، الذي إذا قام تلحج، وإذا مشى تدرج، وإن عدا تفجج، قال: فهل سمعت بكلام أنبي عن القلب وأسمج من هذا؟ نعوذ بالله من العجمة المخلوطة بالتعريب، ومن العربية المخلوطة بالتعجيم»⁽⁴⁶⁾. فتمودج مدرسة الصنعة عند أبي حيان التوحيدي يقوم أساسا على شحن النصوص بالسجع والتنميق اللفظي لكي تعيش طقسها الاحتفالي باللغة، أما الإبداعية فمصيورها الإقصاء والنفي، وهو ما يكشف عنه النص التالي لابن عباد وهو يقول يوما «في دار الإمارة لفيروزان المجوسي، وكان الخرائطي حاضرا، في شيء نابذه عليه: إنما أنت مخش مجش، محش، لا تهش ولا تبش ولا تمتش^x» فقال له فيروزان: «أيها الصاحب، برئت من النار إن كنت أدري ما تقول، إن كان من رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم، فإن العرض لك، والنفس فداؤك، لست من الزنج، ولا من البربر، ولا من الغز، كلمنا بما نعقل على العادة التي عليها العمل؛ والله ما هذا من لغة آبائك الفرس، ولا لغة أهل دينك من هذا السواد؛ فقد خالطنا الناس فما سمعنا منهم هذا النمط»⁽⁴⁷⁾.

واضح من خلال النص فتنة الصاحب باللفظ والغواية به إلى حد يفقد فيه النص معناه، وهذا

المسألة، قليل التقية، سيء البقية، ضعيف البديهة والروية»⁽⁵⁶⁾.

3 - 2 - السجع:

للسجع عند الصاحب بن عباد وقع خاص في كتابته، سواء أتعلق الأمر برسائله الديوانية أم الإخوانية، أو في حوار مع أفراد حاشيته من الخاصة والعامة. ولاشك أن إصراره في السجع ومغالاته في استعماله هو ما دعا أبو حيان التوحيدي إلى انتقاده «وكان كلفه بالسجع في الكلام والعلم عند الجد والهزل يزيد على كلف من رأيناه في هذه البلاد. قلت للمسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟

قال: يبلغ ذاك أنه لو رأى سجة تحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها جبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لكان يخف عليه أن لا يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها، ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها»⁽⁵⁷⁾ وقريب من هذا النص قول علي بن القاسم الكاتب: «السجع لهذا الرجل بمنزلة العصا للأعمى، والأعمى إذا فقد عصاه فقد أقعد، وهذا إذا ترك السجع فقد أفحم»⁽⁵⁸⁾.

قد يبدو هذا الحكم النقدي على الصاحب بن عباد مبالغاً فيه، على الرغم من إشادة صاحب اليتيمة به، يقول الثعالبي: «وسمعت الأمير أبا الفضل الميكالي يقول: سمعت بعض ندماء الصاحب يقول: كنت يوماً بين يدي الصاحب فقدم البطبخ فقلت «لا مترك» فقال: «بالعجلة لمترك»؟ وكنت أريد أن أقول لا مترك للبطبخ فسبقني إلى التنادر بهذا التجنيس»⁽⁵⁹⁾.

فصورة مدرسة الصنعة أو مدرسة البلاغة

عباد، حرصه على تأكيد الدور الذي تقوم به البيئة «قلت فمن أيهم ابن عباد؟ قال: هو مشكل، لا يجوز أن تهضمه فتضعه في أسفل السافلين، ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه إلى أعلى عليين، ثم ضعه بين هذين أين شئت، على أنه على كل حال جبلي»⁽⁵¹⁾.

لفتنة اللفظ إذا عدواها، ذلك ما تفصح عن قوله أبي حيان التوحيدي عن الصاحب بن عباد: «كان يأخذ طرفاً من الحديث فيمده إلى الفلك بالفنائه والجهل والهدر»⁽⁵²⁾. ويشترك معه في هذه الخاصية أبو الفتح بن العميد الذي قال عنه أبو حيان التوحيدي «هونزر المعاني شديد الكلف باللفظ»⁽⁵³⁾.

وفي السياق ذاته، يرى أبو حيان التوحيدي في مدرسة الصنعة من خلال شخصية الصاحب بن عباد نموذجاً لموقع القوة والسلطة المعرفية والسياسية. ولهذا السبب نهم مطالبة الصاحب بن عباد بضرورة تعظيمه أثناء مخاطبته إذ كان «يقولون: فعل مولانا، وكان مولانا، وما رأينا مثل مولانا؛ وإن رأى مولانا أمكننا من نسخ رسائله وكتب ألفاظه، فإذا سمع هذا وأشباهه ماع وسال وترجرج وذاب وأعطى عليه وجاد»⁽⁵⁴⁾ من هذا النص، يمكن أن نفهم السر في عبارات التحسر التي أبداه أبو حيان التوحيدي إزاء الوضعية التي آلت إليه الكتابة والبلاغة في عصره، من قبيل قوله «وقد كان البيان عزيزاً في وقت البيان... فكيف اليوم وقد استحالت الحال عجماء»⁽⁵⁵⁾.

وأيضاً قوله: «ومع الأدب المدخول، واللسان الملجلج، والعلم القليل، والبيان النزر... وإني لأظن أن الطائع لك في هذه الخطة، والمجيب عنه هذه

وفي السياق ذاته، أورد أبو حيان التوحيدي أيضا النص الآتي «كان أبو مالك يكتب بين يديه، إنما أنت خط وقط فقط، وفتت أطرافه بحركاته تخنثا وتأنثا»⁶² فالسجع إذا مظهر من مظاهر إيثار اللفظ على المعنى، والصاحب بن عباد اتخذ له لذاته كما في قوله: «أنشدني صفلاب، وابن باب، وقرأت على ابن البواب، وسمعت من أبي الحباب، ورويت لأبي المرتاب الدباب كل شيء عجاب».⁶³ وفي المنحى ذاته، وقف أبو حيان التوحيدي ضد السجع المتكلف لأنه يضيق نطاق الأدب، جاء في أخلاق الوزيرين: «ومن رقاعاته أيضا: سمعته يقول يوما، وقد جرى حديث الأبهري المتكلم، وكان يكنى أبا سعيد، فقال: لعن الله ذلك الملعون المأبون المأخون، جاءني بوجهه مكلج، وأنف مفلطح، ورأس مسفح، وذقن مسلح، وسرم مفتح، ولسان مبلح، فكلمني في مسألة الأصلح، فقلت له: اغرب عليك غضب الله الأترح، الذي لزم ولا يبرح».⁶⁴

من هذا المنطلق، رفض أبو حيان التوحيدي الأبعاد السلبية للتكلف في السجع، ودعا إلى الاحتراس من الوقوع في مزلقه؛ كما حدث للصاحب بن عباد وأتباعه حيث أصبح السجع مما يشين الأدب، وإلى هذا أشار ابن الأثير بدوره، حيث انتقد كتاب مدرسة الصنعة في قوله: «وإذا تأملت كتابة المفلحين مما تقدم، كالصائب وابن العميد وابن عباد، وفلان وفلان، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك، والأقل منه على ما أشرت إليه».⁶⁵ لذلك نصح أبو حيان التوحيدي الأديب كي يأخذ بعين الاعتبار أهمية المساواة بين اللفظ والمعنى، إذ إن الأدب الرفيع هو ما خفيت الصنعة فيه حتى يبدو وكأنها معدومة

اللفظية المغرقة في السجع والبديع، لا تبدو متوافقة مع تلك المعايير الأدبية الجديدة التي حاول أبو حيان التوحيدي إرساءها بناء على خصوصية المجتمع العربي، وإكراهاته في القرن الرابع الهجري. وفي هذا الأفق اتهمت مدرسة الصنعة كما مثلها ابن العميد والصاحب بن عباد بالقصور في الأدب؛ والخروج به من دائرته المكتوبة بحرقه المجتمع وأصوات الفئات المهمشة اجتماعيا وسياسيا إلى دائرة الاحتفال باللفظ.

قد نتهم بالتعصب، إذا ما ذهبنا إلى القول بأن عدوى (مدرسة الصنعة) هي إحدى تجليات العنصر الفارسي الذي كانت بيده مقاليد السلطة!

غير أن الرجوع إلى المآخذ المنهجية لأبي حيان التوحيدي على الصاحب بن عباد، يشفع لنا فيما قلناه: «ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ومجاوزته الحد فيه بالإفراط قوله يوما: حدثني أبو علي بن باش، وكان من سادة الناش جعل السين شينا ومر في الحديث: وقال هذه لغة، وكذب وكان كذوبا».⁶⁰

وكتاب «أخلاق الوزيرين» زاخر بالأقوال المسجوعة عند ابن عباد كقوله: «وسمعته يقول لكتاب بين يديه، وقد كتب من إسماعيل بن عباد، وكانت العين من إسماعيل قد تطلست، ولم يكن لها بياض المنشقين بتعجرف الكاتب والقلم، فقال: يا هذا: عيني هكذا ينبغي أن تكتب بالله؟ أنت أعمى؟ أما ترى عيني؟ انظر إليها حسنا! أهي محسوسة، أهي ملموسة؟ أي مطلوسة؟ أهي ممروسة، أهي ممسوحة، أهي منزوحة، أهي مسطوحة. وما كاد يسكت، وهل هذا إلا رقاعة وجهل وكلام رقعاء المعلمين».⁶¹

التعبير عن مكامن الجمال في اللغة ذاتها، يتصرف فيها بحسب المواضيع التي يتناولها، ولهذا السبب ربما يشعر قارئ «مؤلفاته» بهذه القدرة العجيبة لأبي حيان التوحيدي في معالجة مواضيع شتى فلسفية، سياسية، اجتماعية، أدبية، لغوية. لذلك دعا إلى كتابة تكون أشبه بمرآة تعكس بجلاء صورة المجتمع والأديب وروح العصر الذي عاش فيه، لا كتابة تكون أشبه ما تكون «بصناعة أدوات الترف والزينة فهي تحف تتمق في أروع صورة للتنميق»⁽⁶⁸⁾.

وعلى الرغم من المسافة الفاصلة بين زمن كتابات الجاحظ وزمن التلقي على عهد التوحيدي، استطاع أبو حيان التوحيدي أن يحقق الألفة مع نصوص الجاحظ بناء على كون أفق التلقي الذي تشكل فيه التوحيدي، يعد إلى حد ما امتدادا لطريقة الجاحظ في الكتابة. وبهذا المعنى يمكن أن نتلمس بجلاء الحضور المتميز للجاحظ في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، جاء في «البصائر والذخائر» قوله: «جمعت ذلك كله في هذه المدة الطويلة مع الشهوة التامة، والحرص المتضاعف، والدأب الشديد، ولقاء الناس... من كتب شتى حكيت عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكناني، وكتبه هي الدر النثير والنور المطير، وكلامه الخمر الصرف والسحر الحلال»⁽⁶⁹⁾.

وتحضر بصمات الجاحظ في تفكير أبي حيان التوحيدي من خلال اعتباره نموذجا ينبغي الاحتذاء به، فهو سند يعضد به أسباب إقباله على ذم الوزيرين، لذلك وهو يتأهب لنقدهما، استشهد بما خطه الجاحظ من رسائل في المدح وفي الذم إذ يقول: «هذا عمرو بن بحر أبو عثمان، وهو واحد الدنيا،

لدقتها واعتدالها «السجع الذي يلهج به هو مما يقع في الكلام، ولكن ينبغي أن يكون كالطراز في الثوب، والصنعة في الرداء، والخط في العصب، والملح في الطعام، والخال في الوجه، ولو كان الوجه كله خالا لكان مقلبا»⁽⁶⁶⁾. وقريب من هذا الرأي، ما ذهب إليه ابن الأثير في قوله: «واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا، وما من أحد منهم -ولو شدا شيئا يسيرا من الأدب- إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة، ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة وأعني بقولي (غثة باردة) أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها، وما يشترط من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف، أو ينظم عقدا من الخزف الملون»⁽⁶⁷⁾.

وبما أن عصر البويهيين كان عصر ثورات وأزمات داخلية وخارجية، في مثل هذه الظروف سيكون من باب الرقاعة كما يرى أبو حيان التوحيدي أن يركن الأدب والكتابة إلى التصنع والإيغال في البديع. هذا التحول في النظرة إلى الأدب والبلاغة تعداه إلى فهم خاص للغة والإبداع، كان أبو حيان التوحيدي بحسه النقدي، يحاول أن يخرج باللغة العربية من قيود التصنع والبديع إلى الدقة في

والسير على هدى الجاحظ لا يسلم منها أيضا ابنه أبو الفتح «وأما ابنه أبو الفتح ذو الكفائتين... ولقد شبه بالجاحظ فافتضح في مكاتبته لإخوانياته، ومجانتته في كلامه ومسائله لمعلمه التي دلتنا على سرقة وغارته، وسوء تأتية في تستره وتغطيه، ومن شاق حمق نفسه، وكان مع هذا أشد الناس ادعاء لكل غريبة، وأبعد الناس عن كل قريبة».⁽⁷³⁾

فالتقليد إذا، ليس هو الحفظ وإعادة إنتاج ما يشحن به الذهن من معارف سابقة بشكل آلي قد يؤدي أحيانا إلى السرقة، وربما لهذا السبب، انتقد أبو حيان التوحيدى شخصية الصاحب بن عباد، فقد قيل عنه «هو كثير السرقة، سيء الاتفاق، رديء القلب والعكس»⁽⁷⁴⁾. وإلى مثل ذلك، أورد صاحب «اليتيمة» نبذا عن سرقات الصاحب بن عباد، يقول: «سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: قال بعض ندماء الصاحب له يوما: أرى مولانا قد أغار في قوله (الطويل)

لبسن برود الوشي لا لتجمل

ولكن لصون الحسن بين برود

على قول المتنبي⁽⁷⁵⁾ (من الوافر)

لبسن الوشي لا متجملات

ولكن كي يضمن به الجمال

فقال: كما أغار هو بقوله (من المنسرح)

ما بال هذه النجوم حائرة

كأنها العمي ما لها قائد

على العباس بن الأحنف في قوله (من الكامل)

كتب رسالة طويلة في ذم أخلاق محمد بن الجهم، ومدح أخلاق ابن أبي داود، وبالغ في الوصفين، وخطب على الرجلين، ولم يترك قبيحة إلا ألقها محمدا، ولا حسنة إلا منحها أحمد، وحتى جعل ابن الجهم مع إبليس في نصاب واحد وابن داود مع ملك في نقاب واحد».⁽⁷⁰⁾ يضاف إلى ذلك، اعتراف أبي حيان التوحيدى ببراعة الجاحظ في نقد النصوص النثرية يقول: «نعم وأفاد أبو عثمان في رسالته فوائد لا يخفى مكانها على قارئها، وقام فيها مقام الخطيب المصقع، والسهم النافذ، والناصر المدل، والمنتقم المستأصل».⁽⁷¹⁾

3 - 3 - التقليد:

في المقارنة بين طريقة الكتابة عند ابن العميد والجاحظ، نلمس بوضوح مأخذ أبي حيان التوحيدى على ابن العميد الذي عاب عليه تقليده للجاحظ، والذي في نظره أساء إليه أكثر مما أحسن، وذلك لأنه اجتمع للجاحظ ما لم يجتمع لغيره من مفاتيح خولت له نيل مرتبة قلما يصل إليها أحد، وهنا يقول أبو حيان التوحيدى: «أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدا من الجاحظ، قريبا من نفسه، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد، وسواها مغالقات قلما ينفك منها واحد».

(72)

ولابد أن نشير في هذا السياق، إلى أن سمة التقليد

والنجم في كبد السماء كأنه

أعمى تحير ما لديه قائد»⁽⁷⁶⁾

تدل النصوص السابقة من هذا المنظور إذا، على عجز رواد مدرسة الصنعة عن تقليد الجاحظ في الكتابة والنسج على منواله، ذلك أن التقليد عند أبي حيان التوحيدي يعد عتبة أولية طبيعية لكل مبتدئ شريطة أن يتم وسمها بطابعه الشخصي، ولعل أحسن تمثيل لعملية الاحتذاء عند أبي حيان التوحيدي، نجده في أدب أبي إسحاق الصابئ «فأما أبو إسحاق الصابئ فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة... وقال لنا: أمامي ابن عبد كان*، وهو قد أوفى عليه، وإن كان احتذى على مثاله، وفنونه أكثر، وما أخذه أخفى، وناظره أنقد، وروضه انظر، وسراحه أزهز، وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد وما مثله فيها إنسان».⁽⁷⁷⁾

3 - 4 - الإغراب في اللفظ:

لفتنة اللفظ وإيثاره على المعنى أضلع متعددة، تتجلى على مستوى الكتابة، والتوحيدي بحكم حسه النقدي، أخذ على كتابة الصاحب بن عباد الولوج بالغريب من اللفظ، ولعل في النماذج التي انتقاها أبو حيان التوحيدي بعناية من آراء الكتاب، أو الشعراء ما يدل على إفراط الصاحب في الإتيان بكل غريب، جاء في «أخلاق الوزيرين» «وقال لي الخليلي: الرجل مجنون، يعني ابن عباد، وفي طباع المعلمين وهو يقول للتميمي الشاعر كيف تقول الشعر، وإن قلته كيف تجيده، وإن أخذت كيف تعزز فيه؟ وإن عززت كيف تقول الشعر، وإن قلته كيف تجيده، وإن أخذت كيف تعزز فيه؟ وإن عززت فيكف تروم غاية وأنت لا تعرف

ما الزهلق* ما الهبلع، وما العُطَلط، وما الجَلَعَلع، وما القَهَقَب، وما الطُرَطي... أفهذا الضرب من الكلام مما يجب أن يفتقر به، ويتدفق به؟ إنك يا أبا حيان لورأيته يَميسُ وهو يَهذي بهذا وشبهه، وَيَتَمَهَّقُ فيه، وَيَلوي شِدَقَه عليه، ويقذف بالبُرَاق على أهل المجلس، لحمدت الله تعالى على العافية مما به هذا الرجل. وبعد فما بين الشاعر وبين هذا الضرب؟ الشاعر يطلب لفظاً حراً ومعنى بديعاً، ونظماً حلواً، وكلمة رشيقة ومثالاً سهلاً، ووزناً مقبولاً».⁽⁷⁸⁾

يفصح النص عن تكلف الصاحب بن عباد في إيراد الغريب والوحشي من الكلام، وكأن ذكر الغريب والعويص من الكلام دلالة على التبحر في اللغة، كان يقول في مجلسه: «أنا الذُعَاف لمن حساني، والجُرَاف لمن عصاني، والجُحَاف لمن عَناني أو حَرَكَ عَناني، أحمصي فوق هامة الدهر، أين ابن الزيات منا؟ أين ابن خاقان من غلامنا، يعني أبا العباس الضبِّي، ومن علي بن عيسى الحشوي.. فمن ذا يُجارينا ويُمَارينا ويُبَارينا ويُعاديننا ويُضاريننا ويُساريننا ويُشاريننا؟»⁽⁷⁹⁾

في العبارة الأخيرة، نلمس حرص الصاحب بن عباد على تقديم نفسه دائماً في موقع القوة والاستعلاء والتحدي، وكأنه إعلان صريح عن تمثيله للرأي العام الفكري والأدبي في عصره، ومن ثم راح يسخر من رواد بلاطه من الخاصة، كأن يسأل أحدهم مثلاً: «ما الطاية، والثاية، والغاية، والآية، والراية؟ وما الناقة القاصية والعاصية والعاطية؟* وكان سريع الرد على الإنسان شديد التعجرف، وكان ذلك ربما انقلب عليه».⁽⁸⁰⁾

وهذا ما جعل أبا حيان التوحيدي، يصف أسلوبه

تخيره، ومشقة على اللسان عند اللفظ به».⁽⁸³⁾ وقد سعى أبو حيان التوحيدي استناداً إلى ثقافته الموسوعية ودرايته بالنحو، إلى الجهر بضعف الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد في النحو وقلة نصيبهما فيه «فأما أبو إسحاق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المحجة الوسطى، وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو وليس ابن عباد في النحو بذلك، ولا كان أيضاً ابن العميد إلا ضعيفاً، وكان يذهب عنه الشيء اليسير»⁽⁸⁴⁾ وما يدعم هذا الرأي أيضاً، قول الخثعمي عن الصاحب بن عباد: «كيف يدعى له التبريز في كل علم وهو لا يعرف النحو إلا ما جل منه، ومن الكلام إلا ما وضع، ثم هو في اللغة على تصحيف شديد، وتخليط كثير، وفي الأخبار على تمويه لا يخفى على مميز، وقد أفسد رسائله بطريقة المتكلمين، وأفسد المتكلمين بطريقة الكتاب وكذلك النحو واللغة والحديث، وهذا وصف لا يدفعه إلا مكابر».⁽⁸⁵⁾

ومثال هذا الخلط في الرسائل بين طريقة المتكلمين وطريقة الكتاب، ما أورده أبو حيان التوحيدي في «أخلاق الوزيرين» من نصوص تدل على تكلف الصاحب في المعنى «فأما الذي يدل على كلام المبرسمين والمجانين... فما سمعته يقول لشيخ خراساني قد دعا به وأكرمه وتوفر له وكلمه، فسمعته يقول: ما يجب أن يكون لا يقتضي، وما يكون منه لا يجب أن يكون، وقد يجب أن يكون ما يكون، ويكون ما يجب أن لا يكون، وإنما لا يكون ما يجب أن يكون، ويكون ما يجب ألا يكون، لأن ما لا يجب أن يكون ليس في وزن ما يكون».⁽⁸⁶⁾

بكونه يشين اللفظ، فقد جاء على لسان علي بن جعفر: «هو يكذب نفسه بحسن الظن في البلاغة، وطباعه تصدق عنه بالتخلف، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة، وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة».⁽⁸¹⁾

ونذكر على سبيل التمثيل، قول الصاحب بن عباد يوماً: «يحضرننا قوم لهم دَفَرَكُصْنَانِ التيوس أعيا على المسك والغالية، يسألون عما لا يعنيههم ولا يَلِيقُ بقدرهم، ولو سألت واحداً منهم عن كُنْيَةِ أعشى هَمْدَانَ أو عن دُعَيْمِصِ الرَّمْلِ، وما اسم النَّمُودَجِ في كلام العرب، وكيف يُجمع العَجَانُ، وكيف يصرف الهجان، وما الأَقْدُ والمَرِيشُ وما الخباء، والعريش، وما المشوق والحريش، و ما المشوف والخريش، وما الرُّثِيَّةُ والفريش، وما الكَصِيصَةُ والقَصِيصَةُ».⁽⁸²⁾

واللافت للانتباه من خلال النصوص التي انتقاها أبو حيان التوحيدي بذكاء، أنها محكمة بقوة داخلية تحرك التوحيدي لرد الاعتبار لنفسه، بناء على اهتماماته الفكرية والأدبية والسياسية، إذ إن قارئ هذه النصوص المليئة بالغريب والعويص من اللفظ، تشكل كلفة على نفس المتلقي ومشقة على اللسان عند التلفظ به، وهو ما اعترف به أبو حيان التوحيدي نفسه «والذي ينبغي أن يهجر رأساً، ويرغب عنه جملة التكلف والإغلاق، واستعمال الغريب والعويص، وما يستهلك المعنى أو يفسده أو يحيله.. والهجنة التي ليس بعدها هجنة، والركاكة التي ليس فوقها ركاكة، الولع بالغريب، وما يشكل فيه الإعراب، ويتجاذبه التأويل فإن هذا وما شاكله كلفة على النفس عند سماعه ومؤونة على الطبع عند

وما يعضد هذا الرأي أيضا، ما جاء في «الإمتاع والمؤانسة»، حيث يقول أبو حيان التوحيدي عن صاحب: «والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجنة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب»⁽⁸⁷⁾.

ويبدو أن مثل هذه الكتابة عند صاحب بن عباد، كفيلة بإلحاق الضرر بوظيفة الأدب أو الكلام في بعده التواصلية «والكلام كله بين زيادة ربما جلبت الفساد وفتحت بابا إلى الشك، وبين نقصان ربما جلب الإشكال وصار طريقا إلى اللبس، وهذا إذا كان المتكلم عليه من باب الجلي، ومن فن الواضح، فكيف إذا كان في الغامض الخفي واللطيف المحتجب؟.. وخير الكلام في الواضح الجلي أن يكون لطيفا ليستجمع إلى السامع ما يربط به فؤاده، وفي الغامض الخفي أن يكون مكشوفًا ليلحق السامع منه ما نحاه ببحته وطلابه، فأما إذا تهاقت المعاني تارة بسوء التأليف، وتارة بالإكثار، وتارة بالتعريض دخلها الخلل»⁽⁸⁸⁾.

4) حول شعر الوزيرين:

في الاهتمام الذي خصه أبو حيان التوحيدي لطريقة الكتابة عند الوزيرين، اهتمام آخر يوازيه ويتعلق الأمر بالاعتراف أحيانا -ربما بقصد أو غير قصد- بمكانتهما الأدبية والسياسية وتلك مسألة مهمة، تقتضي منا الإشارة إلى الإيجابيات التي أشار إليها التوحيدي في مواضع متفرقة من كتابه «أخلاق الوزيرين»، فما مظاهر التوهج التي رصدها التوحيدي في كتابة الوزيرين؟

يعترف أبو حيان التوحيدي بصعوبة الإمام بكل

خصال وفضائل الوزيرين ذلك: «أنك متى أردت أن تحصي صنائع ابن العميد وابن عباد أردت عسيرا، ومتى أثرت أن تحصل فضائلهما حاولت ممتعا، وأنهما كانا بالسياسة عالمين، ولأولياء نعمهما ناصحين، وإلى الصغير والكبير متحبيين، وعلى القاضي والداني حدين، ولأموالهما باذلين، ولأعراضهما صائنين»⁽⁸⁹⁾.

إلا أنه في مقابل ذلك، نجد أبا حيان التوحيدي ينتصر لشعر الوزير ابن العميد على الرغم من كونه كاتبًا وشاعرا، سواء من خلال استدعاء نصوصه الشعرية أو من خلال تعليقاته عليها. جاء في «أخلاق الوزيرين»: «وجملة الأمر أن ابن العميد كان حسن الكتابة غزير الإنشاء، جيد الحفظ... وله شعر صالح في الغزل والمعاتبة، ولأنه مشهور لا طائل في روايته ومن ذلك قوله:

قلبي دام به نُذُوبٌ

يكاد مما به يَـذُوبُ

قد كنت أخفي الوشاة جهدي

فتمَّ مني به الوجيبُ

فهل سمعتم بمسْتَهام

عليه من قلبه رقيب

يعمد ما ساءني ضراراً

ما هكذا تفعل القلوب»⁽⁹⁰⁾

يضاف إلى ذلك، إشادة أبي حيان التوحيدي

بحسن تذوق ابن العميد لشعر البحري وسرعة

بديهته «وكان أبو الفضل يطري البحري ويعجب

من غزله وتشبيبه، ويستهل فى الجملة طريقتة،
ورجل حاضر يخالفه فى ذلك، فقال أبو الفضل:

البحترى يروم غاية شعره من لا
يقيم لنفسه مصراعا

أنى يروم مناله ولو ابتغى
تقويم قافية له ما استطاعا

جذب العلاء بضبعه فأخله
بين المجرة والسّمال ربّاعا

وغدوت ملتزم الحضيض فكلمنا
فرع العلاء باعا هبطت ذراعنا

قال: فخزى الرجل وسكت.⁽⁹¹⁾

وفى المنحنى ذاته، أشار أبو حيان التوحيدى إلى
قدرة ابن العميد على معرفة الشعر، وتمييز جوده من
رديئه؛ يقول أبو حيان: «كان أبو الفضل مطبوعا على
معرفة الشعر، وكان لا يخفى عليه جوده من رديئه،
وكان يعجب بقول الشاعر:

وجاءت إلى باب من السّجف بيننا
مجاف وقد قامت عليه الولاؤدُ

لتسمع شعري وهو يقرع قلبها
بوحي تؤديه إليها القصائد

إذا سمعت معنى لطيفا تنفست
له نفسا تتقد منه القلائد

ثم قال: هذا والله القول، وأنا أعجب بقول الآخر
حين يقول:

مازلت أهواك سؤل قلبى
ما دمت بين الأنام حيا

وكيف يسلو هواك قلب
سقيته من هواك ريا⁽⁹²⁾

وإلى مثل ذلك، أشاد أبو حيان التوحيدى
بالصاحب بن عباد، لذلك قال فى أول حديثه عن
الصاحب: «فأول ما أذكره من ذلك ما أدل به على
سعة كلامه وفصاحة لسانه، وقوة جأشه، وشدة
مُنْتَهه». ⁽⁹³⁾ وهكذا نجد أبا حيان التوحيدى يعترف
عندما كلفه الصاحب بنسخ رسائله أنها تشتمل
على الجيد والردىء «قدم إلي نجاح الخادم، وكان
ينظر فى خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله،
وقال: يقول لك مولاي: انسخ هذه فإنه قد طلب من
خراسان، فقلت بعد ارتياح: هذا طويل، ولكن لو أذن
لخرّجت منه فقرا كالغرر، وشذورا تدور فى المجالس
كالشمامات لورقي بها مجنوق لأفاق، ولو نفت على
ذي عاتنة لبرئى ولا تمل ولا تستغث، ولا تعاب ولا
تسترت». ⁽⁹⁴⁾

وفى السياق ذاته قال عن الصاحب بن عباد:
«وكيف لا يكون كما يوصف وأنا أقطف من ثمار
رسائله، وأستقي من قلب علمه، وأشيم بارقة أدبه،
وأرد ساحل بحره، وأستولف قطر مزنه». ⁽⁹⁵⁾

الخاتمة:

بقدر ما تنوعت آليات القراءة عند التوحيدى،
فقد كشفت لنا من جهة عن كفاية أبي حيان التوحيدى
القرائية من خلال فهم النصوص والإنسان والعالم،

وعلى هذا الأساس، كان كتاب «أخلاق الوزيرين» شهادة على قناعات أبي حيان التوحيدي وجماعته التفسيرية ضد الوزيرين صاحب بن عباد وابن العميد. وفي هذا السياق، يظهر أن تداخل الوعي السياسي مع الوعي النقدي وهو المظهر الذي عبر عنه خطابه النقدي لاسيما في «الإمتاع والمؤانسة»، و«أخلاق الوزيرين». فأخلاق الوزيرين كان يحمل بين دفتيه رهانين اثنين: رهان سياسي ويتمثل في الرفض التام لسلطة الوزيرين، ورهان نقدي يتجلى في الدعوة إلى اتجاه أدبي جديد يقوم على مقاييس نقدية تخالف مدرسة الصنعة، فكانت إضاءات أبي حيان التوحيدي النقدية دعوة لبناء أفق جديد للأدب العربي.

ومن جهة أخرى على أهمية انفتاح الأدب على مختلف الأنساق الثقافية الأخرى. فالتوحيدي القارئ الناقد يمتلك أدواته وآلياته ومعارفه التي بها يميز ويختار، يحاور ويجادل، يستعين في قراءاته بأراء أساتذته، هكذا يشيد أبو حيان التوحيدي معالم خطابه، بخلاف ما يعتقد البعض من كونه مجرد مدون وناسخ للأخبار وعارض لها.

هكذا تصبح القراءة عنده عملية فكرية عقلية، يتفاعل بها مع ما يقرأ، ويختار من نصوص شعرية ونثرية، كما نجده يستخدم آليات هذه القراءة في مجابهة ما يواجهه من مشكلات كما في «أخلاق الوزيرين»، أو يوظفها أحيانا من أجل الإمتاع والانتفاع بها في بلاطات الرؤساء كما في «الإمتاع والمؤانسة».

الهوامش والإحالات

- 1- Elizabeth Freund, the Return of the reader, Reader Response criticism, Methuen, London, new york,1986;p7
 - 2 - إروءإبش، ”التلقى الأءبى“، ترجمة محمد برءاءة، مجلة دراسات سىمىائىة لسانىة، الءار البىضاء: مطبعة الجءىءة، عءء 6، خرىف-شءاء 1992، ص 11.
 - 3 - محمد مفاءح، الشابه والاءءلاف نحو منهاجىة شمولىة، بىروء: المركز الثقافى العربى، ط:1، 1996، ص 58.
 - 4 - أبو منصور عبء الملك الثعالبى النىسابورى، ىءىمة الءهر فى مءاسن أهل العصر، شرح وءءقىق محمد قمىةة، بىروء، لبنان: ءار الكءب العلمىة، ط:1، 2000، ج 3، ص 183.
 - 5 - أبو منصور عبء الملك الثعالبى النىسابورى، ىءىمة الءهر فى مءاسن أهل العصر، شرح وءءقىق محمد قمىةة، المرجع السابق، ص 225.
 - 6 - أبو حىان التوءىءى، أخلاق الوزىرىن (الصاحب بن عباد وابن العمىء)، وءع ءواشىه ءلىل المنصور، بىروء، لبنان: ءار الكءب العلمىة، ط:1، 1997، ص 9.
 - 7 - المرجع نفسه، ص 3.
 - 8 - أبو حىان التوءىءى، أخلاق الوزىرىن، ص 159-160.
 - 9 - المرجع نفسه، ص 42.
 - 10 - المرجع نفسه، ص 23.
 - * الطم والرء: البءر والءرى كئانىة عن الكءرة (هامش أخلاق الوزىرىن، ص 41).
 - 11 - المرجع نفسه، ص 41.
 - 12 - أبو حىان التوءىءى، أخلاق الوزىرىن، ص 41.
 - 13 - أبو حىان التوءىءى، الإماء والمؤانسة، صءءه وءبطفه وشرح غربىه، أحمد أمىن، وأحمد الزىن، بىروء: منشوراء المكءبة العصرىة، د.ط، 1953، ص 8.
 - 14 - أبو حىان التوءىءى، أخلاق الوزىرىن، المرجع السابق، ص: 8.
- ىءطوآ: ىءهب مع الرىء-ىشىم البرق: ىنظر إلىه لىءءقق أىن ىكون مطره-طاح: هلك وءاه. هامش أخلاق

- الوزيرين، ص:8.
- 15 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص: 139.
- 16 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 43.
- 17 - المرجع نفسه ، ص 43.
- 18 - نادر كاظم، المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: 1، 2003، ص 41.
- 19 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 61.
- 20 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 280.
- 21 - شاعر عراقي نادم الصاحب وفخر الدولة وعضد الدولة وهو عمر بن إبراهيم أبو القاسم (اليتيمة، 3/311) هامش أخلاق الوزيرين، ص 58.
- 22 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 58-59.
- 23 - المرجع نفسه، ص 59-60.
- الرقاعة: الحمق وقلة الحياء-لازب: ثابت.هامش أخلاق الوزيرين،ص59.
- 24 - محمد بن العباس الخوارزمي أبو بكر، كاتب وشاعر أقام في الشام وفي نواحي حلب خلد اسمه بمجموعة رسائل مسجعة فيه المدائح والمراثي والأهاجي توفى 383 هـ وذكر ابن الأثير أنه توفى 393هـ. في رسائله ما يشهد لغلوه في التشبيع له شعر في عيون التواريخ، ينال فيه من الخلفاء أبي بكر وعثمان وعمر. انظر هامش أخلاق الوزيرين، ص60.
- 25 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 60.
- 26 - المرجع نفسه، ص61-62.
- تنفر عليه: علا عليه من الغضب، اشتد غضبه عليه.(هامش أخلاق الوزيرين)، ص62.
- 27 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 64.
- 28 - المرجع نفسه ، ص 99-100.
- 29 - المرجع نفسه، ص 77.
- أفيل : أخطأ وأضعف - خنت: فحش.(هامش أخلاق الوزيرين)، ص77.

- 30 - المرجع نفسه، ص 77.
- 31 - المرجع نفسه ، ص 77.
- 32 - سورة البقرة، الآية: 130.
- 33 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص 160.
- 34 - المرجع نفسه، ص 161.
- 35 - المرجع نفسه، ص 164-165.
- 36 - المرجع نفسه، ص 169.
- 37 - المرجع نفسه، ص: 179.
- 38 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص 237.
- 39 - المرجع نفسه، ص 239.
- 40 - المرجع نفسه، ص 244-245.
- 41 - نادر ناظم، المقامات والتلقى: بحث فى أنماط التلقى لمقامات الهمذاني فى النقد العربى الحديث، مرجع سابق، ص 15.
- 42 - أحمد بوحسن، " نظرية التلقى والنقد الأدبى العربى الحديث، ضمن نظرية التلقى إشكالات وتطبيقات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (د.ت) ص29.
- 43 - البشير المجذوب، حول مفهوم النثر الفنى عند العرب القدامى، الدار العربية للكتاب، 1982، ص 169.
- 44 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص 252.
- 45 - المرجع نفسه، ص 72.
- 46 - المرجع نفسه، ص: 66-67.
- * مخش: الفرس الجصور، مجش: الرحى، محش: مقشور الجلد، تهش: تبسم، تبش: طلق الوجه، تمتش:
تجمع. انظر هامش "أخلاق الوزيرين" ، ص: 58.
- 47 - المرجع نفسه، ص57-58.
- 48 - أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، ص 64-65.

- 49 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 65.
- 50 - المصدر نفسه، ص 62.
- 51 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 74.
- 52 - المرجع نفسه، ص 65.
- 53 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 66.
- 54 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 86.
- * العجماء: البهيمة غير المفهومة إشارة إلى هيمنة العنصر الفارسي على مقاليد الحكم (هامش أخلاق الوزيرين)، ص 12.
- 55 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 12
- 56 - المرجع نفسه، ص 12-13.
- 57 - المرجع نفسه، ص 67-68.
- 58 - المرجع نفسه، ص 68.
- 59 - أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق محمد قميحة، مرجع سابق، ج 3، ص 231.
- انظر أمثلة من إكثاره من السجع في كتاب "يتيمة الدهر" ص.ص 231-236.
- 60 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 75.
- 61 - المرجع نفسه، ص 199-200.
- 62 - المرجع نفسه، ص 75.
- 63 - المرجع نفسه، ص 92.
- 64 - المرجع نفسه، ص 66.
- 65 - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، تحقيق الشيخ كامل محمد عويضة، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط: 1، 1998، الجزء الأول، ص 195.
- 66 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 72.
- 67 - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، الجزء الأول، ص 193.

- 68 - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط5، د.ت، ص 96.
- 69 - أبو حيان التوحيدى، البصائر والذخائر، م.س.1/3.
- 70 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص 26.
- 71 - المرجع نفسه، ص 26.
- 72 - أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 66.
- 73 - المصدر نفسه، ج 1، ص 66.
- 74 - أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 62.
- 75 - البيت في شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 3/338، وروي في الديوان الجمالا بدل الجمال
- 76 - أبو منصور عبد الملك الشافعي النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، م.س.، ج. 3، ص 323. انظر نماذج من سرقات الصاحب في المصدر نفسه: ص.ص 323-326.
- * ابن عبد كان: هو محمد بن عبد كان، كان كاتباً للدولة الطولونية، وكان بليغاً مترسلاً فصيحاً، وله ديوان رسائل (هامش الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 67).
- 77 - أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 67-68.
- * الزهلق: السمين، السريع، الريح الشديدة، الهبلع: الأكل العظيم اللقم، العتلط: اللبن الخاثر، الجلعع: الحديد النفس والقنفذ، القهقب: الضخم والمسنى الطويل الرغيب، الباذنجان، الطرطري: الثدي الضخم والذكر، (هامش أخلاق الوزيرين)، ص 240.
- 78 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص.ص 240-243.
- 79 - المصدر نفسه، ص.ص 90-91.
- * الطاية: السطح - الثاية: مأوى الإبل - الغاية: الراية - الآية: العلامة والعبارة - القاصية: البعيدة عن القطيع - العاطية: المنقادة - العاضية: لا تتبع أمها. انظر هامش "أخلاق الوزيرين"، ص 142.
- 80 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص 142.
- 81 - أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 62.
- 82 - أبو حيان التوحيدى، أخلاق الوزيرين، ص.ص 132-133.

دفر: رائحة خبيثة - الصُّنُّ: بول الوبر - العجان: الأست- الهجان: الإبل البيض الكرام) الأقد: من الأضداد، السهم ألصق به الريش والسهم عليه ريش - المريش: السهم ألصق عليه الريش - المشوق: المشتاق - الحريش: دويبة من كثيرات الأرجل تعرف بأمر أربع وأربعين - المشوف: المزين - الخريش: المخدوش المعضوض - الرثية: الضعف والفتور الحمق - الفريش: ما انبسط على وجه الأرض من النبات ولم يقم على ساق - الكصيصة: الجماعة وحبالة يصطاد بها الطيبي - القصيصة: الطائفة المجتمعة في المكان، المرجع نفسه، ص 132-133.

- 83 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 73.
- 84 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 67.
- 85 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص.ص 86-87.
- 86 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص.ص 92-93.
- 87 - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 54.
- 88 - أبو حيان التوحيدي، المقابسات، ص.ص 234-335.
- 89 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 44-45.
- 90 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص.ص 174-175.
- 91 - أخلاق الوزيرين، ص.ص 194-195.
- 92 - المرجع نفسه، ص 234.
- 93 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 52.
- 94 - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص 246.
- 95 - المرجع نفسه، ص 246-247.

المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم
- 2 - ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق الشيخ كامل محمد عويضة، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط:1، 1998.
- 3 - التوحيدي، أبو حيان، أخلاق الوزيرين (الصاحب بن عباد وابن العميد)، وضع حواشيه خليل المنصور، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط:1، 1997.
- 4 - التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د.ط، 1953.
- 5 - التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، تحقيق ودار القاضي، بيروت: دار صادر، ط:1، 1988.
- 6 - التوحيدي، أبو حيان، المقابسات، تحقيق علي شلق، بيروت: دار المدى، ط:1، 1986.
- 7 - الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، بتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق محمد قميحة، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط:1، 2000م.
- 8 - شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمان البرقوقي، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت.
- 9 - ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مصر: دار المعارف، ط:5، (د.ت).
- 10 - كاظم، نادر، المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمداني في النقد العربي الحديث، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 2003م.
- 11 - المجذوب، البشير، حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، الدار العربية للكتاب، د.ط، 1982.
- 12 - مجموعة مؤلفين، نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، (د.ت).
- 13 - مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط:1، 1996.

الدوريات:

- مجلة دراسات سيميائية لسانية، الدار البيضاء: مطبعة الجديدة، عدد 6، خريف-شتاء 1992.

المراجع الأجنبية:

- Elizabeth Freund, the Return of the reader, Reader Response criticism, Methuen, London, New York, 1986.